أعلام العرب

٥٤

زرياب

أبو الحسن علي بن نافع

موسيقار الأندلس

بقلم

الدكتور محمود أحمد الحفني

الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ - ٩٠٥١٤٧

مقدمة

كان طبيعيا بعد صدور « اسحاق الموصلى » فى سلسلة أعلام العرب أن يكون موضوع « زرياب » هو الكتاب التالى من أعلام الموسيقى فى هذه السلسلة . ومردّ هذا أن زرياب تلميذ اسحاق وصورة صادقة من فنه ، واذن يعتبر تاريخه امتدادا لتاريخ أستاذه .

وموضوع زرياب متسع الجوانب متعدد النواحى ، فان اقامته لم تقتصر على بلد واحد أو قطر واحد ، بل عم نشاطه الأقطار العربية فى مشرقها ومغربها حتى الأندلس ، مما أمكن معه تقديم صورة شاملة عن الحضارة العربية فى أزهى عصورها من الخليج الى المحيط .

وكما عنيت فى الفصل الأول من هذا الكتاب بتصوير الجو الذى أحاط بزرياب فى بيئته ونشأته ببغداد ، كذلك عنيت بعد ذلك فى فصول أخرى بعرض موجز لحالة القيروان قبل قدومه اليها وأثناء اقامته بها ، كما تعرضت فى ايجاز لملامح الصورة التى كانت قائمة فى الأندلس بما يوضح طبيعتها وجو الحياة فيها ونظرة أهلها الى الموسيقى قبل رحلة زرياب اليها وبعد اقامته بها .

وزرياب فى حياته وتنقلاته بين البلاد العربية يمثل وحدة الوطن العربى الذى تنقل فى أرجائه من بغداد الى شمال افريقية الى الأندلس ، مما يؤكد حقيقة أن جميع البلاد العربية وطن لكل عربى .

ونحن بهذا الكتاب نقدم مثالا يحتذيه الشباب فى العصاميه والطموح والكفاح ، وتجنب اليأس والاستسلام ، ومقاومة الشدائد والمحن ، والصبر والصمود دون تخاذل أمام مناوأة الحساد ومكايدة الحاقدين وان علت مكانتهم وطغى سلطانهم ونفوذهم .

وقد سجلنا فيه فصلا أوضحنا به مدى تأثير زرياب وتأثير الموسيقى العربية فى موسيقى الغرب . ولم يكن المقصود من ذلك مجرد الاستعلاء والمفاخرة ، فان هذا لن يقدح فى فضل ما يستمتع به العالم كله من تراث الموسيقى الغربية فى عصرنا الحديث . وان حديثنا عن بناة الأهرام من أجدادنا وما خلدوا من آثار دلت العالم على براعتهم فى علوم الفلك والهندسة والرياضيات وغيرها ، انما هو توعية وحفز للجيل الحاضر الذى استطاع أن يبنى بلدا ويخلق أمة ، وكذلك لأبنائنا وأحفادنا من الأجيال القادمة الذين ننتظر على أيديهم ما هو أعظم وأجل شأنا . فتصل الموسيقى العربية بفضل جهودهم الى المستوى الرفيع بين موسيقات العالم ، وبما يتفق والمكانة الدولية للجمهورية العربية المتحدة ومركزها القيادى .

وقد طرقنا فى هذا الكتاب عدة موضـــوعات لم نسترسل فيها وان كانت جـــديرة بذلك ، كالموشحات وأثر زرياب فى الاتجاهات التى نهضت بفن الغناء وصناعة الآلات مما أشرنا اليه فى ايجاز مراعاة لمقتضيات الكتاب . واننا لنطمع فى أن يمتد جهد طائفة من الباحثين ومن أســـاتذة المعاهد الموسيقية الى استكمال هذه البحوث وأمثالها ، بما يزيد الفن ثروة وازدهارا ..

الفصل الأول

النشأة والبيئة

- النشـــأة الأولى .
- البيئـــة .

النشأة الأولى

ان الميلاد الغامض بين الأطمار والمجاهل من الأحياء ومن غمار الناس لا ينزل بمكانة صاحبه ، ولا يجعله صغير الشأن ولا مهين القدر . قد يولد الناشىء من أبوين معـدمين ، عضهما الفقر بنابه ، وضنت عليهما الدنيا حتى بالصبابة من العيش ، فيظل مغمورا كما لو هبـط من السماء أو خـرج من باطن الأرض ، وقد أنكر الزمان عليه خلقـه ووجوده . فلا يعبـأ التاريخ بميلاده ولا بتسجيل اليوم الذى خرج فيه الى النور ..

وقد تمتد به المحنة فيطالع هذا الطفل دنياه بوجه يشـبه حظه سوادا . وقد يهبط به الحظ المنكود أكثر وأكثر فاذا به فى عداد السلع يباع ويشترى فى سوق العبيد ...

على أن جميع هذه المحن لا تقف عقبة فى سـبيل العبقرية والنبوغ . فاذا بنا نجد ذلك الطفل ينمو ويزدهر ، فما يكاد يواجه اقبال الشباب حتى تسفر حياته المظلمة عن موهبة فذة تتحدى أكبر الفنانين فى زمانه ، وفى حضرة أكبر خليفة . ثم لا يتهيب التنقل بين الأقطار والبلدان ما دام هو مطمئنا الى ما هيأته له شخصيته النفاذة من قدرة وطموح يحبوه بالرزق ويضمن له العيش السعيد .. ثم يبلغ به الاعتزاز بالنفس الى حد لم يسمح فيه للسلطان فضلا عمن سواه ، وهو غريب فى

أرضه وفى قبضة يده ، بتوجيه اهانة اليه وتعييره بلونه الأسود . ثم يتجاوز المألوف والمعهود فى مثل موقفه فيطلب الى هـذا السلطان أن يكون السلاح هو الذى يقضى بينهما ، ولا يكون اللون هو الحكم والفيصل بين أقدار الناس .. ثم تدفعه العزة والاباء الى مغادرة تلك الأرض التى جهلت قيمتـه وجحدت قدره ، فيتابع مسيره فى أرض الله ، يمشى فى منـاكبها ويأكل من رزقه ، واثقا بأن نصيبه منه لن يفوته مادام مؤمنا بذاته واثقا من مقدرته الشخصية على اجتياز الصعاب والتغلب على العقبات .. ويسوقه الطالع الأيمن الى بلد فاء يستقبل فيه استقبال الغزاة والقادة . ثم لا يمضى القليل من الزمن حتى يثبت أنه الضـوء الذى يشـع فى رحاب وطنـه الجديد ، ثم يتخطى أسـواره وجدرانه ليضيء فى أكثر من مكان وأكثر من وطن والتـاريخ الذى تنكر له طفلا فلم يحفل بتسجيل مولده سيتغنى بآثاره المبكرة وكأنما يلتمس التجاوز عن تجاهله اياه فى نشأته وينشر بين الجميع ذكراه ويتولى تمجيد مآثره وتخليد الثناء عليه ...

فمن هو اذن ؟

انه ذلك الصبى الأسود اللون ، الذكى الملامح ، المستدير الوجه ، الذى كسا شعره جبهته وانسدل حتى حاجبيـه .. أبو الحسن على بن نافع ، الذى عرفناه وعرفه التاريخ باسم زرياب .

وتحدثنا أكثر المراجع أنه لقب بزرياب لسواد لونه وفصاحة لسانه ، تشبيها له بطائر غرد أسود . الا أنه قد ورد فى المعاجم

اللغوية أن « زرياب » بكسر الزاى هو الذهب أو ماؤه معرب عن الفارسية . وليس ثمة ما يمنع من قيام التفسيرين معا بالنسبة لعلى بن نافع اذ لا تناقض ولا اختلاف بينهما . فهو فى منزلة الطائر الأسود الفرد الذى أطلقوا عليه اسمه من باب التشبيه . وهو أيضا صاحب الصوت الذهبى الذى يساير تفسير المعاجم وهو جدير به .

وقد أطلق اسم « زرياب » على مغنيـة ليست بسـوداء اللون ، هى « زرياب الواثقية » احدى المغنيات الشهيرات فى العصر العباسى الأول ، وقد توفيت حوالى ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) وأشار اليها صاحب الأغانى وغـيره أكثر من مرة . وليس فى أخبارها ما يدل على أنها سوداء . كما أن زمانها لم يكن بعيدا كل البعد عن عصر على بن نافع .

أول عهدنا بزرياب أنه كان أحـد موالى الخليفة المهدى (١٥٨ هـ / ٧٧٥ م — ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) . ثم لا نعلم تاريخ مولده على وجه التحديد ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من أعلام الشرق وعباقرة الغرب الذين لم ينتبه اليهم التاريخ الا بعد أن نبه ذكرهم وعلا قدرهم . وفى الصدارة من أسباب ذلك الاغفال أن المؤرخين قديما لم يكلفوا أنفسهم الجهد بتأريخ هؤلاء مهما سما فنهم وتوالى الحديث عنهم ، وانما كان جل اهتمامهم منصرفا الى تسجيل أعمال الملوك وأخبار كبار القواد والأمراء ، ولا يكترثون الا لأصحاب الحول والطول ومن فى وسعهم البذل والعطاء . أما هذا المولود ذو البشرة السوداء المغمور الأصل

والمعدن ، والذى تجرى حوله المساومة بالبيع والشراء فى الأسواق فماذا عسى أن تكون أهميته التى تحملهم على العناية بأمر نشأته وتحديد يوم ميلاده ..

على أنه قد يستفاد من مراجعة مجموعة التواريخ التى تصادفنا فى حياته بعد ذلك أن ولادة زرياب كانت حوالى عام ١٦٠ هـ (٧٧٧ م) أى أنه عند وفاة المهدى كان زرياب ما يزال صبيا لم يتجاوز التاسعة من عمره [1] .

ونظرا لما توسمه فيه مولاه الخليفة من مخايل النجابة وفصاحة اللسان فقد منّ عليه بالعتق وتمتع بالحرية فى مطلع فجر الصبا . وقد عاصر بعد ذلك من الخلفاء فى بغداد الهادى ابن المهدى (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م — ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) ثم هارون الرشيد (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م — ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) الذى أتيح لزرياب أن يغنى بين يديه .

وكذلك تبدو المراجع القديمة خلوا من ذكر أى شىء عن

---

(١) ورد فى كتاب الأغانى ج ٥ ص ٢٢٢ (طبعة دار الكتب) ان مغنية اسمها صلفة (بكسر الصاد وفتح الفاء) اشتراها الخليفة المقتدر بالله العباسى (٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م — ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م) أو والده المتضد بالله (٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م — ٢٩٥ هـ / ٩٠٨) من زرياب . ولا يمكن أن يكون البائع زرياب الموسيقار لتباعد الزمان والمكان بينه وبين الخليفتين المذكورين . وربما كان أبو الفرج يعنى المغنية زرياب الواثقية ، ذلك لأن المهدى الذى كان زرياب أحد مواليه ولد عام ١٢٧ هـ وتوفى عام ١٦٩ هـ . والرشيد الذى غنى زرياب بين يديه قبل أن يشتهر ورحل من بغداد فى زمانه ولى عام ١٧٠ هـ وتوفى عام ١٩٣ هـ ، وعبد الرحمن بن الحكم الذى عرف باسم عبد الرحمن الأوسط ولى امارة الأندلس عام ٢٠٦ هـ وتوفى عام ٢٣٨ هـ وقد دخل زرياب الأندلس فى أوائل حكمه .

أسرته وعن موطنها الأصلى ، ولم تحدثنا عن أول من نزل من عشيرته مدينة بغداد . ولكن تلك المراجع تناولت الحديث عن الموالى بصفة عامة وخصوصا السود الذين يعد زرياب واحدا من عشيرتهم وأحد أفراد جنسهم .

كان الزنوج ضمن العناصر التى ازدحمت بها بغداد فى هذا العصر وكان لهم أثر كبير فى مختلف نواحى الحياة ، وكانوا فى الغالب يستقدمون من سواحل افريقيا الشرقية . وقد عرفوا بالشجاعة النادرة واحتمال مشقة القتال . وكانوا فى كثير من المعارك الحربية ينضمون الى فرق الجيش العباسى فيزداد الجيش بهم قوة ومنعة . والى جانب هذا كان لهم فى الناحية الاجتماعية نشاط ملحوظ . كما كانوا يطلقون كلمة « السود » أو « السودان » على ما يشمل الأحباش أيضا . وقديما اتصل هؤلاء السود بالعرب فكان منهم بلال الحبشى مؤذن رسول الله ، ومنهم سعيد بن جبير سيد التابعين الذى قتله الحجاج . وكان من شعرائهم فى العصر الأموى الحَيقَطان الذى هجا جريرا وفاخره بالزنج فقال :

والزنج لو لاقيتهم فى صفهم لاقيت ثمّ جحاجحا [1] أبطالا

وكان معروفا عن الزنج أنهم يتسمون بطلاقة اللسان ، ووفرة الحديث ، وشدة الأبدان ، وقلة الأذى ، وطيب النفس ، وضحك السن ، وحسن الظن . واشتهر الزنج الحقيقيون بصفاء الخلق ،

---

(١) جحاجح : جمع جحجح وهو السيد .

ورجاحة العقل ، ومعرفتهم بالحساب والفلك وأسرار الطب وفنون التصوير والصناعات . وقد نبه من هؤلاء السود فيما بعد كافور الاخشيدى الذى حكم مصر والشام ، وكان عبداً أسود اشتراه الاخشيد بثمانية عشر دينارا . وقد مدح المتنبى سواده فقال :

فجاءت به انسان عين زمانه
وخلّت بياضا خلفها ومآقيا

ومن قديم كان للبيض نساء من السود ، فأعشى سليم كانت له دنانير بنت كعبوية الزنجى وكانت زنجية وقد رآها تكتحل فقال :

كأنها والكحل فى مرودها تكحّل عينيها ببعض جلدها

وقد تزوج الفرزدق « أم مكية » الزنجية وكان يؤثرها على جميع نسائه ويثنى عليها فى شعره .

وكثر استخدام هؤلاء السود فى العصر العباسى فامتلأت بهم قصور الأمراء ومنازل الأوساط حتى بيوت الفقراء .

ومن طبيعة الزنج ميلهم الى المرح ، وعدم احتمالهم للهموم ، كما امتازوا بأن الرقص والايقاع فطرة لهم وطبع فيهم ، حتى قيل : « لو وقع الزنجى من السماء الى الأرض ما وقع الا بايقاع » .

البيئـــة

ان البيئة التى استقبل فيها زرياب صباه وشبابه قد أهلته للكثير من ضروب الفنون وألوان الخبرة بشئون الحياة المختلفة . فلم يقتصر نبوغه على فنون الموسيقى والغناء فحسب ، بل كان فوق ذلك شاعرا مطبوعا وجامعا لكثير من أنواع المعـرفة ، عالما بأحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء . وكان أيضا راوية ومحدثا اكتملت فيه جميع صفات الندماء .

وحسبه أن تكون بغداد هى المدينة التى شب فيها وترعرع وتأثر بأوساطها وبيئاتها وبثقافتها ومدنيتها ، وعاشر أعلامهـا وعلماءها وأساطين فنانيها .

لقد بزّت بغداد فى عصر العباسيين سائر المدن بما بلغته من أسباب المدنية الزاهرة التى لم ترق اليها مدينة سواها . فكانت بحق زهرة المشرق وجنة الدنيا . شيّدت فيها القصور الفخمة وغرست فى أفنائها البساتين والحدائق الغنـاء . وامتـلأت بالميادين الفسيحة ، وازدحمت بالمساجد الفخمة المشيدة فى بناء ضخم وشكل هندسى جميـل ، وقد زينت جـدرانها بأروع الزخارف وأبدع النقوش .

وقد أخذت الدولة العباسية من مظاهر الأبهة والعظمة ما لم تعرفه دولة من قبل . فأصبح الخليفة فى الحفلات الرسمية يخرج

بأعظم مظاهر الملك والخلافة ، فى كوكبة من الحراس وفى زى نظامى . يتقدم الموكب فرقة من المشاة تحمل الأعلام ، ثم فرقة الموسيقى تصدح بحلو الأنغام . ثم يظهر خلفها جماعة الأمراء فوق جياد مطهمة مزدانة . وأخيرا يقبل الخليفة على جواد أبيض ، يتبعه كبار رجال الدولة ، ثم بقية الحرس فى نهاية الموكب .

وخطت الدولة خطوات واسعة فى الناحية العلمية فامتلأت بالمدارس ودور العلم واتسمت الدولة العباسية فى عرف المؤرخين جميعها بأنها مطلع شمس العلوم والفنون ، ومشرق نور العرفان . فقد كانت بحق دولة العلم والتأليف والابتكار والتدوين والنقل والترجمة . وكان من أثر ذلك أن نبغ فى كل علم وفن كثير من العلماء ، وصارت بغداد زهرة مدن الدنيا وكعبة طلاب العالم ، والمركز العلمى والأدبى الأول ، حتى لقد كان لزاما على كل من تفوق فى علم أو فن اذا رغب فى الشهرة وذيوع الصيت أن يرحل الى بغداد وأن يتقرب بعلمه وفنه الى خلفائها وأمرائها . وكثرت فيها دور الكتب التى كانت أندية للعلماء والباحثين . وانتشرت المؤلفات ، ونشطت صناعة الكتابة والخط . وشيدت المراصد الفلكية والمصحات الفخمة . ونبغ عدد كبير فى علوم الطب وفن الصيدلة والرياضيات وغيرها .

وبلغت الدولة ذروة المجد والحضارة ، وكثر الخير واتسعت أبواب الرزق ، وتأنق القوم فى مظاهر الجمال وألوان البذخ . فقصور الخلفاء والأمراء وأمثالهم مترفة كل الترف . وقد روى

أن الخليفة المتوكل أنفق على قصره المعروف بالعروس فى مدينة « سر من رأى » ثلاثين مليـــونا من الدراهم ، وعلى قصرى الجعفرى عشرة ملايين ، وقصر الغريب عشرة ملايين ، وقصر الشيدان عشرة ملايين ، وقصر المليح خمســـة ملايين ، وقصر بستان الايتاخية عشرة ملايين . وبذلك بلغ مجموع ما أنفقه على قصوره وحدها أربعة وتسعين ومائتى مليون من الدراهم .

أما عن ترف الوزراء فقد كان الوزير « ابن الفرات » يملك أموالا كثيرة تزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكان يستغل من ضياعه فى كل سنة مليونى دينار ينفقها جميعها . وكانت فى داره حجرة شراب يوجه الناس على اختلاف طبقاتهم اليهـا غلمانهم يأخذون الأشربة الفقّاع [1] والجلاّب [2] الى دورهم . وكان ابن الفرات لا يأكل الا بملاعق البلّور . وكما روى عنه ابن خلكان كان لا يأكل بالملعقة الا لقمة واحدة .

وكان راتب « أبى طاهر » وزير الدولة من الثلج كل يوم ألف رطل . وكان الوزير « المهلبى » كثير الشغف بالورد . روى من رآه قال : « شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتيع له فى ثلاثة أيام ورد بألف دينار ، فرش به مجالســـه وطرحه فى بركة عظيمة كانت فى داره ولها فوارات عجيبة يطرح الورد فى مائها فتنفضه على المجلس فيقع على رءوس الجالسين » .

وبلغت الحالة الاجتماعية أرقى ما يتصوره انسان ، وتقدمت

---

(١) الفقاع : الشراب يتخذ من الشعير ، وسمى به لما يعلوه من الزبد .

(٢) الجلاب : بضم الجيم او فتحها ، العسل أو السكر عقد بماء الورد (معرب) .

أسباب الحياة ومعيشة الرفاهية ، وارتفعت قيمة الاجتماعات ، وازدهرت الندوات ، وانتشرت مجالس الأدب والثقافة . وكان النساء يشتركن مع الرجال فى تلك المناظرات وهذه المجتمعات .

وكان الأرقاء من الأمم المغلوبة — نتيجة للفتوحات الاسلامية المتلاحقة وحروب التحرر المتتابعة ، لا يحصى عددهم كثرة من مختلف الجنسيات . وبلغ من وفرتهم أن كان امتلاك الرقيق فى متناول الناس جميعا . وقد كان لذلك أثر كبير فى الحياة الاجتماعية . وكان الرق يجمع بين شتات الأجناس والشعوب والديانات والثقافات . وعنى العباسيون عناية خاصة بتعليم الجوارى وتدريبهن فى مختلف الفنون والصناعات . فاذا كانت الجارية ذات صوت حسن ومنظر جذاب اتجهوا بها الى تعلم الموسيقى والغناء حتى تجمع الجارية فى الجمال بين حسن المنظر وحسن الشدو فى النغم . وكان ذلك سببا فى نشر الغناء على أوسع نطاق ، حتى ان المرء ليواجه هذه الظاهرة الفنية فى كل مكان ... فى الطرقات ، فى المحال العامة والندوات الخاصة ، فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ، فى بيوت الأغنياء ودور الفقراء. وشغف الناس جميعا بالغناء حتى بدا وكأنه ضرورة لكل انسان . وأقام النخاسون أصحاب هؤلاء الجوارى بيوتا [1] معدة للسماع فى الأحياء المختلفة . وكثرت هذه البيوت فى بغداد . وهذه المحال العامة للمغنيات والمغنين من الغلمان كانت

---

(١) كانت هذه البيوت تسمى « بيوت القيان » . والقينة فى اللغة الامة ، مغنية كانت أو غير مغنية ، ولكنها فى العرف لا تطلق الا على الامة المغنية .

تلقى شدة اقبال الناس عليها للسماع ، لما يتوافر فيها من تهيئة جميع أسباب المتعة والأنس . ولم يتحرج من التردد عليها حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية . فابن فهم الصوفى كان كلفا بسماع مغنية اسمها « نهـاية » جارية ابن المغنى . وابن غيلان التاجر يسمع غناء « بلثور » جارية ابن اليزيدى . وأبو الحسن الجراحى القاضى يسمع غناء «شعلة» . وأبو سليمان المنطقى الفيلسوف الكبير وشيخ أبى حيان التوحيدى يسمع غناء صبى موصلى فتن الناس فى عصره ، وهكذا ...

والظاهر فى قولهم هذا ، ورواياتهم فى هذا الصدد أن محال الغناء كان منها المستهتر الذى يناسب المعربدين ، ومنها المتحفظ بعض الشىء الذى يناسب المتحفظين .

وما روى لنا يدل على أن الغناء فى هذا العصر كان غالبه بالشعر العربى السهل القريب المعنى ، السائغ اللفظ والوزن . فقد كانت « قنوة » تغنى :

يا ليتنى أحيـا بقربهم فاذا فقدتهم اقضى عمرى

و « سندس » تغنى :

مجلس صـبيّن عميدين ليسا من الحب بِخلّوين
قد صيّرا روحيهما واحداً واقتسماه بين جسـمين
تنـازعا كأسـاً على لذة قد مزجاها بين دمعـين
الكأس لا تحسُن الا اذا أدرتهـا بين محبـين

و « درّة » تغنى :

لســت أنسى تلك الزيارة لمــا
طرقتنـــا وأقبــلت تتثنى
طرقت « ظبيــة » الرصافة ليلا
فهى أحلى من جسّ عودا وغنى
كم ليــال بتنــا نــلذ ونلهو
وتسَــقّى شرابنا وتغَــنّى
هجرتنــا فمــا اليهــا ســبيل
غير أنّا نقــول كانت وكنّــا

وهكذا كان الشعر الغنائى سهلا ، والمعــانى قريبة يبدو معظمها حول العشق والغرام والهجر والوصال .

وهذا الشغف بالغناء كان من عوامل تنمية الأحاسيس الفنية والقدرة على الحكم للانتاج أو عليه بالجودة أو الضعف . كما استلزم بطبيعته تلقين الجوارى زيادة على فنون الغناء العزف بالآلات ومعــرفة فنــون الشعر والأدب والرواية والقصص والتندر ، ليتم الاستمتاع فى مجالس الطرب بكل هذه النواحى مجتمعة .

وقد وصل الغناء على أيدى الجوارى فى هذا العصر الى أبعد غاية من التقدم والسمو . وبلغ من عناية الخلفاء بهن أن قيل ان الرشيد ــ وهو أول خليفة غنى زرياب بين يديه ــ اتخذ ألفى جارية فى قصره ، لكل صنف منهن صنعة وفن وميزة فى الأدب والموسيقى والطرب . والحق أن مجالس الغناء فى هــذا العصر كانت تعد من عجائب الفن .

وبلغ القوم من الأناقة فى المعيشة أن سنّوا للظرف والظرفاء قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف . وصنفوا فى ذلك الكتب والمؤلفات ، نذكر منها على سبيل المثال :

١ ــ الموشى ، أو الظرف والظرفاء	للوشـــاء
٢ ــ حدود الظرف	»
٣ ــ ما يقدم من الأطعمة وما يؤخر	للرازى
٤ ــ ترتيب أكل الفواكه	»
٥ ــ آداب الحمّام	»
٦ ــ الهدايا والسنّة فيها	لابراهيم الحربى
٧ ــ الزينة	لحنين بن اسحاق
٨ ــ النبيذ وشربه فى الولائم	لقســطا بن لوقا
٩ ــ الايقاع والمؤانسة	لأبى حيان التوحيدى

ونسوق مثلا من هذه المصنفات ما ورد فى كتاب الموشى من أدب اللياقة :

« اعلم أن من كمال أدب الأدباء وحسن تظرف الظرفاء ، صبرهم على ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم . فهم لا يداخلون أحدا فى حديثه ، ولا يتطلعون على قارىء فى كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مسرّ سرّه ، ولا يسألون على ما ورى عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه الخ ... » .

ووضعوا قوانين الظرف فى الزى ، وفى أنواع الحلى ، وفى التعطر ، وفى الشراب والموائد ، وما هو ظرف فى الرجال دون